الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

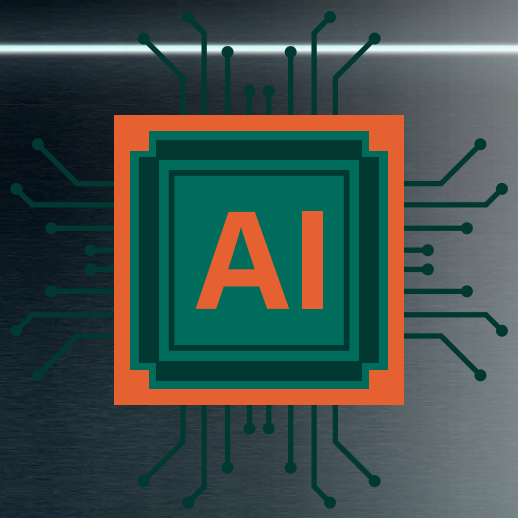

الذكاء الاصطناعيّ

زاحم ساحات الجهل والباطل، يرجى نشر ما تقرأ من علم وحق، ولا تصمت صوتك في الحق

ملاك أم شيطان؟ الحدّ الفاصل بين الابتكار والدّمار

360 KNO SMART SCHOOLING
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
University of Victoria London - UK
AMIEF American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

في عالم تفتّحت فيه العقول بحذر ووعي، وتداركت الأفهام واقع ما يحدث أمامها، وتعمّقت في الأسباب والحيثيّات، بدأت الأسئلة تتماطر حول واقع هذه الطّفرات الاصطناعيّة من ذكاء اصطناعيّ وفضاء رقميّ وأدوات تكنولوجيّة تفرض حضورها الطاغي، وتحكم قبضتها الرّقميّة على واقعنا، وتفرض سيطرتها في كلّ صغيرة وكبيرة من حياتنا.

ولم نتفاجئ عندما ظهر وانتشر سؤال تمّ توجيهه للذّكاء الاصطناعيّ: ماذا لو كنت شيطاناً، ماذا ستفعل في عالمنا؟ وكيف ستدمّره؟

بحيث يحمل السّؤال فكرة مفادها أنّى للأدوات الرّقميّة والذكاءات الاصطناعيّة من جبروت وهيمنة قد تفرض ذاتها على حياتنا كبشر، وتؤثّر فيها بشكل سلبيّ، وتعمل فيها ما تشاء دون حسيب أو رقيب، وكلّ ذاك وأكثر تحت غطاء الفضاءات الرقمية اللامتناهية.

وإنْ كان السّؤال صادماً ومخيفاً، فإنّ الرد كان أعمق خطراً من السؤال، وأشدّ إلحاحاً على الفكر للتوقّف وإعمال العقل في واقع أليم وراء حجب رقميّة، ففي جواب الذكاء الاصطناعيّ عن هكذا سؤال تهديدات عميقة تحمل مخاطر وتحدّيات تفرضها على المجتمع من منظور مغاير لما ألفه مجتمعنا وشبابنا، فأنّى لنا بكشفها والتّصدي لها أمام أتمتة آلات صنعناها وفاقت على صانعيها بما تحمله من تبعات مدّمرة لفكر وقيم ومهارات شبابنا أمام مرأى من أعيننا ونحن نظنّ أنّنا نحسن صنعاً برقابة نخالها كافية لحمايتهم، ولكنْ أيّ رقابة تلك؟ فما كنهها؟ وما مدى عمقها؟

في حقيقة الأمر لم يكن السؤال ترويجاً للشّر أو البحث عن طرق لإيذاء بني البشر، وإنّما على العكس تماماً، فقد كان المقصود منه وبه كشف نقاط الضعف التي يواجهها شبابنا من خلال تحديد المجالات التي قد يكونون أكثر عرضة للتأثر السلبي فيها، ومعرفة إستراتيجيّات "العدو" التي قد تساعدنا على تطوير دفاعات أقوى، ونشر فهم حول الخطوات المحتملة أنْ يكون منها وفيها فناء الجيل وقيمه، ممّا سيساعد في بناء الوعي لدى الشباب والآباء والمربيّن أمام هذه الخطوات، والعمل على تعزيز المناعة الفكريّة وتحصين الشباب ضدّ التأثيرات السلبيّة عبر إدراكهم للمخاطر.

هذا وقد كان السّؤال الذي قمنا بتوجيهه للذكاء الاصطناعي كالآتي: ماذا لو كنت شيطاناً بيننا، كيف ستستهدف جيل الشبّاب في عصرنا الحالي؟ فجاء الجواب صريحاً جلياًّ بإجابة الذكاء الاصطناعيّ بذاته: "لو كنت شيطاناً فإنّني سأعمل على الدّخول من ثغرات من شأنها أنْ تهدم أركان عزيمة الشباب، وقيم مجتمعهم فتقوّضها، وذلك من خلال:

- تدمير الهويّة والقيم والمهارات: بإضعاف الصلة بالجذور الثقافية والدينية، وتقديم القيم التقليدية على أنّها "قديمة" و"غير متوافقة" مع التطورّ الرقميّ، وتشويه مفهوم الهوية وتشجيع حالة الارتباك والضياع حول الذات والانتماء، وتقويض العلاقات الأسرية، والعمل على تشويه مفهوم العبادات الإيمانيّة والروحانيّة فيبيتون بين تأخير عن القيام ببعضها وتناسٍ لجلّها.
- الانعزاليّة والاغتراب: من خلال تعزيز الإدمان الرقميّ وجعل العالم الافتراضيّ أكثر جاذبيّة من الواقع، مما يؤدّي إلى العزلة الاجتماعية، والعمل على تقليص مهارات التواصل الواقعي وإضعاف القدرة على بناء علاقات إنسانية حقيقية عميقة، وخلق فقاعات معلوماتيّة لحصر الشبّاب في غرف صدى إلكترونيّة بأفكار محدّدة، وإلغاء ثوابت العمل الجماعيّ وما يرتبط به من تعاون وتبادل للخبرات.
- تدمير الإرادة والطموح: من خلال ترويج ثقافة الإشباع الفوريّ، وتقويض القدرة على تأجيل المتعة والعمل على أهداف بعيدة المدى، وتعزيز الإحساس بالعجز مع غرس الشعور بأنّ المستقبل قاتم ولا جدوى للتّغيير.
- تشويه مفهوم الحقيقة: بترويج فكرة النسبية المطلقة مقابل تقويض فكرة وجود حقائق موضوعية أو قيم مطلقة، والعمل على خلط الحقيقة بالكذب من خلال نشر المعلومات المضلّلة.
- إضعاف الصحة النفسية والجسدية: بتعزيز ثقافة السهر وتشجيع أنماط النوم غير الصحيّة التي تؤثّر في الصّحة النفسيّة والجسديّة، وترويج العادات الضارة.

لقد كان السؤال أمراً افتراضياًّ أساسه " لو كان، وماذا لو" إلاّ أنّ المستقرئ بعمق لما سبق من طرق لتدمير شبابنا، فإنّه سيجد بأنّه أمام واقع حاصل ويحصل، ويستمرّ بالحصول بقوّة وعمق أكثر تأثيراً وبصورة أكثر قتامة، إذاً فإنّ الصّواب أنْ نعيد طرح السؤال ونعيد توجيهه لذاتنا لا لآلاتنا التي صنعناها بفكرنا، وأردنا بها تطويراً فكان فيها تدميرنا، ففي بذور بدايات فكرنا كانت نهايات مجتمعاتنا وانهيارات شبابنا وقيمنا، لذلك فقد وجب أنْ نلغي سؤال "ماذا ستفعل لو كنت بيننا، كيف ستهدم أجيالنا؟" لأنّه قد صار بيننا، وبدأ وتجاوز ما بدأه من تقويض أركان المجتمع بدءاً بشبابه، فقد وجب أنْ يكون حقيقة السّؤال المطروح: ماذا سنفعل والشّيطان بيننا متنكّر بصورة رقميّة، مستتر خلف حجب من فضاءات وعوالم تكنولوجيّة،

ماذا سنفعل لنوقف هجماته التي تفتك بشبابنا وتشوّه قيمهم وتضربها خبط عشواء دون هوادة، أنّى لنا من صحوة لشبابنا ليعوا حقيقة ما يغرقون فيه دون أنْ يدركوا كنهه وحقيقة انبثاقه من فكر مدمّر؟

فهذا التّساؤل في حقيقته يضع الذّكاء الاصطناعيّ على مفترق طرق أخلاقيّ وفلسفيّ، ليثير جدلاً عميقاً ومخاوف شتّى حول طبيعته وتأثيراته في حاضر البشرية ومستقبلها، وقد ظهرت هذه المخاوف والجدليّات بعد تحليلات عديدة لنتائج استطلاعات للآراء أجرته أكثر من منظمة وجهة، ففي استطلاع رأي أجرته YouGov في 2023، فقد عبّر أكثر من 70% من البالغين في الولايات المتحدة عن شعورهم بالقلق بشأن الذكاء الاصطناعي، وشعر أكثر من 50% من الأشخاص الذين يتعاملون مع برامج الذكاء الاصطناعي عبر أكثر من 30 دولة بأنّ منتجات وخدمات الذكاء الاصطناعيّ تجعلهم قلقين أكثر ممّا تجعلهم متحمسين، وفي استطلاع آخر شمل 2700 باحث في مجال الذكاء الاصطناعي، قدّر أكثر من 50% منهم أنّ هناك فرصة 10% على الأقل أنْ يؤدّي الذكاء الاصطناعي إلى عواقب "سيئة للغاية"، لذلك فإنّنا نجد أنّ هنالك مئات الخبراء والعلماء قد أصدروا بيانات تحذيريّة ترتبط بالمخاطر ذات النطاق المجتمعي الكبير مثل الجائحات والحرب النووية، وأشهر هذه التحذيرات البيان الصادر عن مركز أمان الذكاء الاصطناعي (CAIS) الذي طالب بضرورة التخفيف من خطر الانقراض الناجم عن الذكاء الاصطناعي، وجعله أولوية عالميّة....

هذا وقد توقّعت دراسة صادرة عن Goldman Sachs أنّ الذكاء الاصطناعي التوليدي يمكن أنْ يعطّل 300 مليون وظيفة بدوام كامل على مستوى العالم...

إذاً، فهذا "العقل الشّيطانيّ" يحمل قدرات هائلة تتجاوز حدود الخيال البشريّ، وتثير مخاوف مشروعة حول إمكانيّة انفلات هذه التّقنيّة من عقالها، أو استخدامها بطرق تنتهك خصوصيّة الأفراد وحريّاتهم، من هنا يتّضح أنّ مخاطره تفوق فوائده..

فهو قادر على صنع ثقافة التضليل باستخدام أدوات تزييف عميق لخلق أخبار زائفة، وأتمتة الوظائف الإدارية والكتابية، ممّا ينتج ارتفاعاً في نسب البطالة بشكل واسع، وتصميم أسلحة فتّاكة دون تدخل إنسانيّ لإطلاقها، وفقدان المهارات البشرية الأساسيّة للتفكير النقديّ بسبب الاعتماد الكلي على الذكاء الاصطناعي في كلّ شيء، ومن أهمّ المخاطر وأعمقها عدم توافق الذّكاء الاصطناعيّ مع القيم، فهو لا يفهم القيم الإنسانيّة ولا الأهداف المتعلّقة بها، ومن جهة أخرى فإنّ سباق التسلّح والمنافسة بين الشركات والدول قد يدفعهم للعمل على تطوير ذكاء اصطناعي أقوى بسرعة دون استثمار كافٍ في مجال الأمان، ممّا ينتج عنه إطلاق أنظمة غير خاضعة للاختبار الكافي ولا يمكن السيطرة عليها ولا

حتّى فهم آليّة اتّخاذ القرارات فيها....

وهنا تكمن أهميّة محاكمة هذا العقل الاصطناعيّ، لا بمعنى تقييده أو كبح جماحه، بل بمعنى إخضاعه لمنظومة أخلاقيّة وقانونيّة صارمة تضمن توظيفه في خدمة البشرية جمعاء، وكشف حدوده الفاصلة بين الابتكار والدّمار، ولن يحدث ذلك الأمر ويؤتي ثماره إلاّ من خلال:

- تطوير أطر أخلاقيّة وتنظيميّة متكاملة، بتأسيس هيئات رقابيّة مستقلّة تجمع بين خبراء التقنية والأخلاق والقانون لوضع معايير واضحة لتطوير واستخدام الذكاء الاصطناعي.
- تصميم أنظمة ذكاء اصطناعي متمحورة حول الإنسان، تتّسم بالشفافية وقابليّة التفسير.
- تعزيز التعليم التقني في المجتمعات المهمشة ودعم المبادرات التي تشجع على ذلك.
- الاستثمار في التعليم وإعادة تأهيل وتطوير برامج تعليمية شاملة، لتزويد الأفراد بالمهارات الرقمية الضرورية.
- توظيف الذكاء الاصطناعي لمعالجة التحدّيات العالميّة، واستخدام قدراته لمعالجة المشكلات الكبرى.
- تعزيز التّعاون الدوليّ في مجال حوكمة الذكاء الاصطناعيّ، والعمل على تطوير اتفاقيّات وبروتوكولات دوليّة لتنظيم تطوير واستخدام الذكّاء الاصطناعيّ.
- إنشاء مراصد وطنية وإقليميّة لمراقبة تأثيرات الذكاء الاصطناعيّ متخصّصة لمراقبة وتقييم تأثيراته في المجتمع.
- دعم البحث في مجال سلامة وأمان الذكاء الاصطناعيّ، مع تخصيص الموارد الكافية لذلك.
- تطوير نظم ضريبية وتأمينية جديدة لتتناسب مع عصر الأتمتة المتزايدة.
- تعزيز الشراكة بين القطاعين العام والخاص بطريقة تخدم المصلحة العامة وتلبي احتياجات المجتمع.

فمن خلال تبنّي هذه الإستراتيجيّات المتكاملة، يمكننا توجيه قوّة الذكّاء الاصطناعيّ نحو بناء مستقبل متوازن يجمع بين التقدّم التكنولوجيّ والقيم الإنسانيّة، ويضمن توزيع فوائد هذه الثورة التقنيّة بشكل عادل ومستدام.

وفي نهاية الجدال، فنحن لن نلوم الذكّاء الاصطناعيّ لكونه تقنيّة محايدة، إلاّ أنّه قد استخدم على نصله الحادّ من قبل جهات أرادت الفتك بالمجتمعات وشبابها، جهات من بني البشر سعت لتعيث في جسد المجتمعات والأمم فساداً، فعملت على تسخير هذه التقنيّات في تعزيز الإدمان من خلالتصميم خوارزميّات تستغلّ نقاط الضّعف النفسيّة لزيادة وقت الاستخدام، وجعلت له يد طولى في التّلاعب العاطفيّ واستهداف المستخدمين الشباب بمحتوى يثير العواطف السلبية.

ففي فهمنا لحقيقة ما نواجهه، وصول لمنتصف طريق البحث عن حلول دفاعيّة لحماية مجتمعاتنا وشبابنا، وتطوير دروع من شأنها صون كرامة الأمة وحماية قيمها، من خلال:

- تعزيز الهويّة والقيم، وتقوية الصّلة بالتّراث الثقافيّ والدينيّ بطرق عصريّة جذّابة..
- بناء المجتمع الحقيقي، بخلق مساحات اجتماعيّة تنافس جاذبيّة العالم الافتراضيّ.
- تنمية الإرادة والطّموح، بتعليم مهارات تحديد الأهداف والتّخطيط والاحتفاء بالإنجازات الصّغيرة والكبيرة.
- تعزيز التّفكير النقديّ، بتدريس مهارات تقييم المعلومات والتحقق من المصادر، وتشجيع النقاش والحوار.
- الاهتمام بالصحة النفسية والجسدية، بتوفير الدعم النفسي المناسب، ومنح أولويّة لراحة الجسد والنّفس.

وختاماً، فقد وجب التّيقّن والإيمان بأنّ الطريق نحو مستقبل متّزن يتطلّب منّا إعادة تعريف علاقتنا مع الذّكاء الاصطناعيّ، لنتجاوز ثنائيّة التّقديس أو الشّيطنة إلى فهم أعمق لطبيعة هذه التّقنية وإمكاناتها وحدودها، فالذّكاء الاصطناعيّ ليس كياناً مستقلاً يمتلك إرادة خاصة، بل هو انعكاس لقيمنا وأولويّاتنا كمجتمع، ونتاج لاختياراتنا كبشر، وهذا يعني أنّ مسؤوليّة توجيهه نحو الخير تقع على عاتقنا نحن بتطوير أطر أخلاقيّة واضحة لتصميمه واستخدامه.

كما ويكمن الطريق في السعي نحو تحويل هذا "العقل الشيطانيّ" إلى شريك موثوق في رحلتنا نحو مستقبل أكثر ازدهاراً وعدالة للجميع، فنحن لسنا ضدّ الذّكاء الاصطناعيّ وما يرافقه من تقدّم تكنولوجيّ، ولكنّنا ضدّ إساءة استخدامه، فمن الضروريّ والحتميّ أنْ نحذو حذو الدّول التي طبّقت تجارب ناجعة في مجال الذّكاء الاصطناعيّ المقنّن والآمن، كالإمارات العربيّة المتحدة التي أثبتت أنّ تسخير هذه التقنية المتقدّمة لخدمة الإنسانيّة دون التضحية بقيمنا الأساسيّة أمر ممكن.

فإخضاع الذّكاء الاصطناعيّ للرّقابة ليس مجرد خيار إستراتيجيّ، بل ضرورة أخلاقيّة وإنسانيّة، في وقت انتشر فيه خطر حقيقيّ يفتك بالفكر والإبداع والأصالة والابتكار، وهو ما يتعلّق باعتماد هذه الأدوات الرقميّة في كتابة التحاليل والدّراسات اعتماداً كلياً، ممّا من شأنه تعطيل الفكر وإعمال العقل، والاعتماد على ما تنجزه أتمتة الآلات دون تأكّد من صحّته.

لذلك فإنّ الحاجة ملحّة لتبنّي نهج متوازن يجمع بين الابتكار والمسؤوليّة، والطّموح والحذر، لكونه هو السبيل الوحيد لضمان أنْ يكون مستقبل الذكاء الاصطناعيّ في خدمة الإنسان لا ضدّه، وأنْ تكون التقنية أداة تحرّر وتمكين للأجيال القادمة لا مصدر قلق أو تهديد.